استدعاء شخصية فاطمة نسومر في رواية الطوفان لعبد الملك مرتاض

Invoke the personality of Fatima Nsomer in the Flood novel by *Abdelmalek Mortad*

الدكتورة: فاطمة الزهرة ناضر

جامعة: حسيبة بن بوعلي الشلف/الجزائر

البريد الإليكترون:NADHARFATIMA@GMAIL.COM

تاريخ الإرسال: 2020/08/28	تاريخ القبول:2020/09/09	تاريخ النشر: 2020/11/10

ملخص:

يعدّ عبد الملك مرتاض من بين الروائيين العرب الذين اهتموا بالتراث ووظفوه في أعمالهم الأدبيّة، واستلهموا منه معظم شخصياتهم، وهذا نظرًا لتنوع مصادره وغناها بالرموز والدلالات الإيحائيّة والمضامين.

وقد لجأ عبد الملك مرتاض في روايته "الطوفان"إلى استدعاء مجموعة من الشخصيات التاريخيّة المختلفة لخدمة رؤاه المعاصرة، ووظفها بطريقة فنيّة فريدة وحملها مجموعة من أبعاد تجربته المعاصرة، وجعلها وسيلة تعبير و إيحاء، بغية إثارة وجدان المتلقي ولفت انتباهه إلى أهم قضايا عصره.

ومن أبرز الشخصيات المستدعاة شخصية "فاطمة نسومر" التي وظفت كرمز للبطولة والوطنيّة، لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة استنطاق بُناها الدلاليّة والرمزيّة، وبيان سماتها الإيجابية التي تتوافق مع مسارها النضاليّ المليء بالبطولات والتضحيات

وهذا نظرًا لاهتمام مرتاض بجانبها التاريخي المشرق، وتعاليه بشخصها عبر بنية السرد بغية إبراز مكانتها التاريخيّة وإماطة اللثام عن بعض الأراء التعسفيّة المجحفة في حقها من طرف بعض الكتاب والمؤرخين المستشرقين بتسليط الضوء على نصوصهم المحرفة، وتحذير القارئ من الانخداع بها وتصديقها.

الكلمات المفتاحية: عبد الملك مرتاض، فاطمة نسومر، الشخصية، الرواية، الطوفان.

Abstract:

Abdelmalek Mortad was interested in heritage and was inspired by his characters, as he employed in his novel "The Flood" a group of historical figures and

summoned the character "Fatima Nsomer " as a symbol of heroism, patriotism and courage, and used it in a unique artistic way to arouse the recipient and draw his attention to the most important issues of his time.

Therefore, we will try through this study to study its semantic and symbolic structure, and to show its positive features compatible with its struggle path rich in sacrifices and heroism for the sake of the homeland.

This is due to Murtad's interest in her bright historical side, and the elevation of her character through the structure of narration in order to highlight her historical position, And uncovering some arbitrary and unfair opinions about her on the part of some orientalist writers and historians by shedding light on their distorted texts, And warning the reader not to be fooled by she.

Key words:. Abdel Malek Mortad, Fatima Nsomer, character, novel, the flood.

مقدمة:

تعدّ الشخصية من أهم التقنيات التي تشكل بنية الرواية، والعنصر الأكثر غموضًا فيها، إنّها أداة فنيّة يبتدعها الكاتب، ويرسم ملامحها ومعالمها بطريقة مميزة ويجعلها كائنًا ينبضّ بالحياة ويقدمها للقارئ، على أنّها كائن ورقيّ فريد، تفرض سيطرتها داخل بنية الخطاب السردّي،وتحاكي الواقع بكلّ سلبيّاته وإيجابياته.

لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة استنطاق الُبنى الدلاليّة و الرمزية المضفاة على شخصية "فاطمة نسومر" والتعرف على طريقة هيكلتها ، وذلك بطرح الإشكاليات التاليّة:

- لم استدعى عبد الملك مرتاض شخصية فاطمة نسومر في رواية "الطوفان"؟
- وكيف تمّ توظيفها داخل بنية خطاب الرواية ؟
- وما هي السمات الدلاليّة والرمزيّة التي أضفاها عليها؟

فضلاً عن الطبيعة المعرفيَّة لخطاب هذه الإشكاليَّة، آثرنا أن نعتمد في هذا البحث مقاربةً دلاليّةً تسترفد بفواعل السيميائيَّة السرديَّة طورًا، وبالإجراء النقديّ الجماليّ؛ النسقيّ والسياقيّ، أطوارًا أخرى، بغية الكشف عن الآليّة التي تشتغل وفقها شخصية "فاطمة نسومر" داخل بنيّة الرواية، وذلك عن طريق

استقراء بنية هذه الشخصية، واستنطاق بناها الدلاليّة والرمزية، واستكناه عناصرها الفنيّة من الناحية الجماليَّة، والأسلوبيَّة.

1-مفهوم الشخصيّة(personnage): (المستويات: البشريُّ، والورقيُّ، واللغويُّ)

اهتمت المدارس الأدبيّة والاتجاهات النقديّة بدراسة الشخصية الروائيّة وتحليلها وخاصة بعد تسليط الضوء عليها من طرف الناقدة فرجينيا وولف وانقسمت إلى ثلاثة مواقف:

1-1- الموقف الأول:

أضفى على الشخصية بعدًا واقعيًّا، وتعامل معها على أنّها إنسان له ذاته وتطلعاته باعتبارها «كائن بشريّ من لحم ودم يعيش في مكان وزمان معينين »[1] تطابق الأشخاص الأحياء كذات فرديّة كاملة التكوين،لها جوهرها السيكولوجيّ وحياتها التي تعيشها،بحكم «قدرتها على حمل الآخرين على تعرية طرف من أنفسهم كان مجهولًا إلى ذلك الحين،فإنّها تكشف لكلّ واحد من الناس مظهرًا من كينونته التي ما كانت لتكشف فيه لولا الاتصال الذي حدث عبر ذلك الوضع بعينه»[2]، فهي قادرة على كشف خبايا الإنسان المجهولة وذلك بتقمص الأدوار المختلفة التي يلبسها الروائيّ لها، وهذا نظرًا للامتيازات الفنيّة التي تتمتع بها داخل بنية النص السرديّ.

الأمر الذي جعل الكثير «من القراء يحسبون الشخصية الكائن فعلاً وحقًّا من الورق شخصًا فيزيقيّا،أي كائناً بشريّاً ذا وجود واقعيّ»[3]،قائمًا بذاته،وبالتالي وقوعهم في شرك الخديعة السرديّة والخلط بين الشخصية التخيليّة والشخصية الإنسانيّة الواقعيّة إلى درجة المطابقة.

وقد لاحظ تودوروف (**Tzvetan Todorov**) سوء هذا التأويل عند النقاد القدامى، واعتبر قضية الشخصية قضية لسانيّة باعتبارها كائنات ورقيّة لا وجود لها خارج الكلمات، فهي محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنيّة محددة.[4]

1-2-الفريق الثاني: أفرغ الشخصية من كلّ محتوى دلاليّ،وتوقف عند وظيفتها النحويّة،ورأى أنّها «هيكل أجوف ووعاء مفرغ يكتسب مدلوله من البناء القصصيّ فهو الذي يمدّه بهويته»[5]فهي عبارة عن مورفيم فارغ يحتاج إلى الدلالة ليمتلئ،وهذه الدلالة لاتحصل دفعة واحدة، وإنمّا تتواتر النعوت والأوصاف والعلامات، وتتراكم لتشييدها وإنتاجها، وإعطائها مدلولها الذي يكتسب عن طريق الدال والمدلول، ويذهب فيليب هامون إلى حد «الإعلان أنّ مفهوم الشخصية ليس مفهومًا أدبيًّا محضًا،وإنمّا هو مرتبط أساسًا بالوظيفة النحويّة التي تقوم بها الشخصية داخل النص أمّا وظيفتها الأدبيّة فتأتي حين يحتكم الناقد إلى المقاييس الثقافيّة والجماليّة».[6]

فالشخصية وحدة دلاليّة تتجلى عبر بنية الخطاب السرديّ الذي تكتسب من خلاله وظيفتها الأدبيّة وبعدها الجماليّ،فهي بمثابة الفاعل في العبارة السرديّة،نظرا لإمكانيّة المطابقة بين الفاعل و الاسم الشخصيّ للشخصية – حسب رأيّ تودوروف- إنّها مجرد عنصر من مكونات السرد مثلها مثل الزمن والمكان[7] والمكونات السرديّة الأخرى.

1-3-الفريق الثالث: يعتبر الشخصية عنصرًا لسانيًّا وعلامة لغويّة «لا تتحقق فاعليتها إلاّمن خلال قراءتها داخل نسق عن طريق جملة من الروابط الشكليّة والتقنيات اللغويّة »[8]، إنّها كائن لغويّ يقدمه النص ويشيده ويتحكم فيه،ويظهره بواسطة مجموعة من العلامات والسمات باعتباره كائنًا نصيًّا يتجسد تشكيليًّا وفنيًّا على الورق حيث أصبحت الشخصية «في العمل السرديّ تنحو منحًا لغويًّا.

ذلك بأنّ النظرة الجديدة إلى الشخصية، أمست تنهض على التسوية المطلقة بينها وبين اللغة والمكونات السرديّة الأخراة، ومن أجل ذلك،ربما عدت الشخصية مجرد كائن من ورق:وأنّها أولاً وقبل كلّ شيء مكون لسانياتي،بحيث لا ينبغي أنْ يوجد شيء خارج ألفاظ اللغة »[9]، أيّ لا وجود للشخصية خارج اللغة فهي كائن ورقيّ خال من الصبغة الحسيَّة والوجود الواقعيّ، وليس له هوية الكائن البشريّ وذاته المنفردة، إنّما هو من إفراز خيال المبدع.

انطلاقًا مما سبق نستخلص أنّ الحمولة المفهوميّة لمصطلح الشخصية لازالت مستعصيّة يكتنفها بعض الغموض، ورغم المحاولات النقديّة التي ساهمت في كشف بعض وجوهها، وقد تضاربت هذه الدراسات وتناقضت، حيث ذهب الاتجاه التقليديّ إلى اعتبار الشخصية كائنًا إنسانيًّا من لحم ودم له صورته الواقعيّة،وجوهره السيكولوجيّ الخاص به،الأمر الذي جعلهم يولون لها كلّ الأهمية،ويغلون في رسم ملامحها الماديّة والمعنويّة،وببروز المنهج البنيويّ تغيرت نظرة النقاد إلى الشخصية،فمنهم من اعتبرها علامة لسانيّة،ورتبة نحويّة لا تكتسب دلالتها وصورتها الكليّة إلاّ عند بلوغ النص نهايته وبالتالي تستوفي وظيفتها الأدبيّة،فيما ذهب اتجاه آخر إلى اعتبار الشخصية علامة لغويّة، وكائنًا ورقيًّا لا وجود له خارج اللغة، لذا يجب عدم الاهتمام بها، والنظر إليها على أنّها عنصر من مكونات السرد.

وبناء على ذلك تظلّ الشخصية مجرد مشروع يغري النقاد، ويستعصى عليهم،لأنّها عالم معقد لها هويتها وكينونتها داخل النص الأدبّي،وخاصة حين يضفي عليها الأديب روح عصره، ويلبسها حلة العفوية ويغوص بها في عمق التجربة الإنسانيّة،محاكًيا الواقع بكلّ ترسباته جاعلًا منها كائنًا تخييليًّا واقعيًّا مبتدعًا لا مثيل له.

2- شخصية لالا فاطمة نسومر[10]:

استحضر عبد الملك مرتاض في ثلاثيّته شخصية "لالا فاطمة نسومر" كرمز للمرأة الجزائريّة المقاومة والمناضلة باعتبارها أسطورة الكفاح النسويّ، وذلك نظرًا لشجاعتها وتمردها على الظلم و الاستبداد، والعدوان الفرنسيّ، وخوضها المعارك الضاريّة في سبيل استرجاع حرية وطنها، فقد حاربت وكافحت وناضلت بكلّ ما أوتيت من قوة، وألحقت بالعدو الفرنسيّ هزائم متعددة وخسائر فادحة في حرب ضروس دامت سبع سنوات «ويبدوا أنّ مؤرخيّ الكائن الغريب العنيد الذي اقتحم على آبائكم من وراء البحر اللّجّيّ، هالهم أن تقود امرأة مقاومةً ضاريّة أقضت مضطجعة وأفشلت خططه الحربيّة في القضاء على مقاومتها، فظلّت متوهجة، في كلّ بلاد القبائل، طوال سبعة أعوام تترى»[11].

وسلط عبد الملك مرتاض الضوء على بعض أحداث حياتها، وأضفى عليها بعدًا أسطوريًّا، وجعلها رمزًا للبطولة والقوة والصمود واستحضر :

1- زمن ومكان ميلادها .
2- نسبها.
3- زواجها.
4- سقوطها في قبضة المجرم راندون.

وقد اعتمد في سرد هذه الأحداث على عنصر الحكي الذي استلمت زمامه الراوية "الأمّ زينب"، وذلك برويّ الأحداث والوقائع بصورة موجزة دون التوغل والغوص في التفاصيل معللة سبب ذلك إلى تجاهل المؤرخين لحياتها، وتكلمهم عنها باقتضاب «لم يتكلم التاريخ عن حياة السيدة فاطمة بنت سيد أحمد نسومر، الشخصية،ولا عن صباها(...) وقد ولدت في السنة التي استرق فيها الكائن الغريب العنيد الذي جاء من وراء البحر اللّجّيّ البعيد، ليقتحم على أرض آباءكم المحروسة المحميّة البيضاء. ويقال أنّها ولدت بقرية ورجة ثمّ انتقلت إلى

قرية أكبر تسمى نسومر، فنسبت إليها بالصيغة القبائليّة فقيل:"نسومر،أيّ السّومريّة"»[12]

والمتتبع لقصة البطلة فاطمة نسومر يلحظ أنّ عبد الملك مرتاض لم يعط لهذه الشخصية أحقيّة التعبير عن نفسها، ولا عن مكنوناتها الداخليّة، ولا حتى بتقمص شخصها لأنّ الخطاب كان على لسان الراوية "الأمّ زينب"، وذلك من خلال استدعاء مقولتين لكلّ من الكاتب الإنجليزيّ: "نيفيل باربور" والألماني "بروكلمان،"[13] بعقد مقارنة بينهما واستنطاق دلالتهما الإيحائيّة، وتسليط الضوء على رؤيّة المستشرقين، ونظرتهم نحو المقاومة والبطلة" فاطمة نسومر.

2-1-نيفيل باربور:

استحضر عبد الملك مرتاض مقولة الكاتب نفيل باريور التي شبه فيها المقاومة فاطمة نسومر بالمقاومة جان دارك «حتى إنّ الإنجليزيّ نفيل باربور (BarbourNEVILL) شبه لالا فاطمة نسومر بالمقاومة الفرنسيّة جان دارك حين كانت تقود مقاومة وطنيّة ضد وجود الإنجليز في فرنسا»[14].

وقد حاول من خلال هذا الاستحضار استقراء هذه المقولة والتعمق في دراستها عن طريق عقد مقارنة بين هاتين الشخصيتين، وتسليط الضوء على أوجه التشابه بينهما من الناحيّة: التاريخيّة،و الاجتماعيّة، العقائديّة .

2-1-1-التاريخيّة:

إنّ الشيء الملاحظ في رواية الطوفان هو مدى اهتمام عبد الملك مرتاض بإبراز الجانب التاريخي للمقاومة فاطمة نسومر في ظلّ الاحتلال الفرنسيّ، ومقارنته بتاريخ كلّ من جان دارك [15] و كاترينا الثانية اللتين رأى أنّ ظروفهما التاريخيّة كانت أفضل حالًا من ظروف فاطمة نسومر« كانت ظروف المقاومة الفرنسيّة جان دارك مختلفة عن الظروف التاريخيّة العصيبة التي كانت تعيشها

المجاهدة فاطمة نسومر، كما كانت الظروف التاريخيّة التي كانت تعيشها كاترينا الثانية إمبراطورة روسيا وأرملة بطرس الثالث، مختلفة أيضا [16] ».

وقد جمع عبد المالك مرتاض بين الشخصيات الثلاثة، وأسقط عليهن صفة البطولة، والقوة والشجاعة، وأعلى من مكانتهن، وخاصة« المقاومة فاطمة نسومر » هذه المرأة التي تحدت الاستدمار الفرنسيّ، وشنت ضده معاركًا ضارية، إلّا أنّ المؤرخين تجاهلوها، وأنقصوا من مكانتها مقارنة « بجان دارك»، و "كاترينا الثانية[17]" اللتين شغلتا صفحات التاريخ، و أقلام الكتاب باعتبارهن نسوة مقاومات، الأمر الذي جعل مرتاض يحاول إنصاف هذه المقاومة عن طريق التعالي بشخصها عبر بنية السرد، وجعلها رمزًا للفداء والتضحية، والبسالة، والنضال، والوطنيّة.

بناء على ما سبق نستخلص أنّ استحضار مرتاض للشخصيات الثلاثة: "لالا فاطمة نسومر" "جان دارك"،"كاترينا الثانية " جعل النص يبدو أكثر موضوعيّة حيث تمكن من خلاله إبراز مدى تميز المقاومة فاطمة نسومر كامرأة قبائليّة،عربيّة مسلمة،عن غيرها من النساء الغربيّات،باعتبارها رمزًا للوطن والأمة الإسلاميّة.

2-1-2- الاجتماعيّة:

أما من الناحيّة الاجتماعيّة فإنّنا نجد أنّ عبد الملك مرتاض استحضر حدث عزوف فاطمة نسومر عن الزواج نظرًا لاشتغالها بمحاربة العدو الفرنسيّ، وخدمة وطنها ورأى أنّ هناك شبه كبير بينها وبين المقاومة جان دارك من هذه الناحية، فهي لم تتزوج مثلها «ومن عجب يا أولاد، أنّ السيدة فاطمة السومريّة (لالا فاطمة نسومر) لم تتزوج مثلها مثل المقاومة العظيمة جان دارك، ولعلّ من أجل ذلك شبهها المؤرخ الإنجليزيّ بربور بجان دارك المحروسة المحميّة البيضاء »[18].

من هذا المنطلق يتبين أنّ مرتاض استطاع من خلال هذا الاستحضار إبراز مدى وطنيّة المقاومة فاطمة نسومر ومحبتها لوطنها، وبيان الدور الذي لعبته في نصرة قضيتها الوطنيّة، فما تخليها عن هذا الرابط المقدس إلاّ أكبر دليل على شغفها بوطنها وانتمائها إليه.

لتصبح بذلك رمزًا للتضحية والنضال والتمرد، مثلها مثل المقاومة جان دارك التي وهبت نفسها لوطنها فرنسا، وأخلصت له حتى النهاية.

وقد لاحظ مرتاض أنّ بربور وفق في تشبيهه هذا بجعل هاتين البطلتين رمزًا للبطولة، والشجاعة والتضحيّة، والمقاومة نظرًا لنذر روحهما فداء للوطن وانشغالهما بحمايته وتحريره من براثين الاستدمار.

2-1-3-العقائديّة:

لم يكتف عبد الملك مرتاض باستحضار البعد التاريخي والاجتماعي، وإنما نجده أيضًا استحضر البعد العقائديّ وأضفاه على شخص المقاومة فاطمة نسومر، لإبراز مدى تدينها، واعتزازها بدينها الإسلامي، واهتمامها بالعلم، وتعليم الناشئة، وذلك عن طريق عقد مقارنة بينها و بين كاترينا الثانية وجان دارك بقوله «وإذا كانت كاترينا الثانية اشتهرت يا أولاد بتشجيعها العلم والعلماء، وبحمايّتها الفلاسفة ليخوضوا فيما أرادوا (...)،فإنّ لالا فاطمة نسومر شجعت نشر التعليم بين الناشئة في كلّ بلاد القبائل الصغرى والكبرى إذ كانت هي نفسها عالمة متبحرة في علوم شتى، ثمّ إذا كانت جان دارك الفرنسيّة كانت تسمع هاتفًا يُهيب بها (...) أن تهبّ لمقاومة المحتلين الإنجليز لوطنها فارتبطت حياتها منذ سنينها الأولى بالمعتقدات والكنائس والمعابد والقدّاسات، فإنّ لالا فاطمة نسومر ما قيل لها "لالا" وهي لفظة أمازيغيّة تعني "السيدة" أو "الوليّة" إلّا لأنّها هي أيضًا كانت حياتها مرتبطة بالعلم والولاية والزوايا »[19] ملاحظًا أنّ كلّ واحدة من هاته الشخصيات اهتمت بالمجال العلميّ وشجعت على طلبه.

وفق هذا المنظور نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض في رواية "الطوفان" ركز على المجال العلميّ والمعرفّي لشخصيّة كاترينا الثانية، واستحضرها كرمز للعلم، والمعرفة، وحرية التعبير دون الاهتمام ببعدها العقائديّ، وهذا نظرًا لفسقها وفجورها، وغياب الوازع الدينّي لديها، إذ انحدرت من الناحية الأخلاقيّة إلى أحطّ المستويات وعاشت حياة إباحيّة مستهترة.[20]

لذلك نجد مرتاض لم يستحضر هذا البعد وغيبه عن بنية رواية"الطوفان" لأنّه لا يتوافق مع شخص فاطمة نسومر رمز الصلاح والطهارة والنقاء.

أما شخصية جان دارك فنجده استحضر بعدها العقائديّ الدينيّ، وأضفى عليها لونًا من القداسة نظرًا لارتباطها منذ صغرها بالكنيسة والمعابد، وجعلها رمزًا للقداسة والطهارة والمسيحيّة، والعفة، ونبل الأخلاق والوطنيّة، والإخلاص، مهملًا مجالها العلميّ لأنّ جان دارك كانت أميّة لا تعرف القراءة، وقد قالت:« أنا لا أعرف ألفها من بائه» [21]،باعتبار أنّها ذات نشأة ريفيّة.

لذا نجد مرتاض أقصى هذا البعد من روايته "الطوفان" وتعالى بشخص فاطمة نسومر من خلال هذه المقارنة، وأضفى عليها البعدين العلميّ والعقائديّ، نظرًا لتربيتها الإسلاميّة وجعلها رمزًا للإسلام، والتصوف والمعرفة، و العلم و الطهارة، و النقاء، و قوة الإيمان وحسن الأخلاق.

باعتبارها صورة حية للمرأة الجزائريّة المقاومة، و القائدة المحنكة القوية والعالمة المثقفة، ذات الشخصية الفذة و الخصال النبيلة، المتشبثة بالقيم والأخلاق السامية فرغم الاحتلال إلاّ أنّها أثبتت وجودها كامرأة مقاومة متميزة عن غيرها من النساء.

والشيء اللافت للانتباه هو إقحام عبد الملك مرتاض إمبراطورة روسيا "كاترينا الثانية" في بنية النص رغم أنّه في حالة القيام بعملية مقارنة بين شخصية " فاطمة نسومر "و "جان دارك".

ولعلّ السبب وراء ذلك هو عدم غنى شخصية "جان دارك" بالإيحاءات والدلالات المتعلقة بالمستوى العلميّ، والثقافّي التي تتناسب مع شخص فاطمة نسومر،لذا استعان بشخصية "كاترينا الثانية" ليكمل هذا النقص، وليبرز عظمة المقاومة فاطمة نسومر من الناحية التاريخيّة ،والدينيّة، والروحيّة، والثقافيّة، موظفًا الجانب الإيجابّي لشخص كاترينا دون السلبيّ، ليتوافق مع بنية رمز فاطمة نسومر، ولتتناسب هذه الشخصيات الثلاثة مع العنوان الكليّ "ثلاثيّة الجزائر".

2-2-كارل بروكلمان:

استحضر عبد الملك مرتاض مقولة أخرى لمستشرق آخر ألا وهو كارل بروكلمان الذي أطلق على المقاومة فاطمة نسومر لقب النبيّة بقوله: «وفي الجزائر،كان على الفرنسيين أن يسلخوا فترة طويلة في قتال البربر النازعين أبدًا إلى الثورة، وفي سنة 1857 ظهر في قبيلة ينّي نبيّة اسمها لالا فاطمة فاتبعتها القبائل المجاورة كلها»[22] وثاروا معها ضد الاحتلال الفرنسي.

ومن ثمّ قام باستنطاق رأي هذا المستشرق في المقاومة لالا فاطمة نسومر، ورأى أنّ هناك نوعًا من الإساءة والمغالاة لشخص هذه المقاومة، حين أطلق عليها لقب النبيّة إذ أجحف في حقها، وخاصة حين تكلم فقط عن تاريخ سقوطها في يد العدو، مشوهًا بذلك صورتها البطوليّة والتاريخيّة، انطلاقًا من وصف أهلها وسكان القبائل بعدم التمدن والتحضر، متهمًا إياهم بالنزوع إلى الثورة لا بمعنى المقاومة ومحاربة الظلم ورفض الاحتلال، وإنّما بمعنى الهمجيّة والعصيان وعدم

التعايش مع الآخرين والتمرد على القيم الحضاريّة وهذا نظرًا لفقدناهم حسّ المواطنة، والتعايش السلميّ حسب منظوره.

ورأى مرتاض أنّه كان الأجدر بهذا الكاتب المستشرق أن يتكلم عن المقاومة فاطمة نسومر بموضوعيّة وحياديّة، ويعطي لها حقها التاريخيّ، وينصفها كما فعل نيفيل بربور الذي شبهها بالمقاومة جان دارك، وأنزلها في خانة العظيمات اللواتي برزن في ميدان المقاومة « فما كان أجدر هذا الرجل الألمانيّ أنْ ينصف السيدة فاطمة نسومر فيطلق عليها صفة من صفات النساء المقاومات الوطنيّات، كما جاء ذلك الكاتب الانجليزيّ بربور، لا أن يجعلها نبيّة وهي صفة لوادعتها، وهي منها براء لكانت صفة سيئة في حقها جدًا»[23].

كما أنّ نعتها بلقب النبيّة*إنقاص لشخصها، وهذا نظرًا لحمولته الدلاليّة التي تحيل إلى الكفر والزندقة وإدعاء علم الغيب، عكس لقب الوليّة الذي يتماشى مع لفظ لالا التي تعتبر« لفظة توقير أمازيغيّة بمعنى السيدة»[24] أو الوليّة، وهذا لأنّ حياتها كانت «مرتبطة بالعلم والولاية والزوايا »[25]حيث ألمت عن طريقها بمختلف العلوم الدينيّة والدنيويّة.

و قد حاول عبد الملك مرتاض القدح في نص بروكلمان، وبيان مدى تعسفه في شخص فاطمة نسومر وخاصة حين تجاهل الانتصارات والنجاحات التي حققتها وحذفها من تاريخ مقاومتها البطوليّ، لا لشيء سوى لإبراز مدى همجيّتها للمتلقي والإنقاص من شأنها، وذلك من خلال العروج على تاريخ سقوطها في قبضة الاحتلال الفرنسيّ دون سواه، بغية التعالي بشخص الجنرال الفرنسيّ راندون عبر بنية النص وجعله رمزًا للقوة والبطولة والانتصار« وقد اضطرّ الحاكم العام، راندون ،[إلى] أن يخرج بنفسه إلى قتالها على رأس ثلاثين ألف رجل، وبعد معارك داميّة أسر راندون لالا فاطمة وأخضع القبائل إخضاعًا كاملاً »[26].

كما حاول كارل بروكلمان من خلال نصه وضع القارئ أمام شخصيتين متناقضتين تمامًا:

الأولى: شخصية المقاومة فاطمة نسومر، وقد أظهرها في صورة المرأة البربريّة المتمردة غير المتحضرة المتعطشة إلى الدماء، وجعلها رمزًا للتمرد والهمجيّة، والزندقة والانحطاط، باعتبارها امرأة ضالة وكاذبة، سحرت سكان القبائل وجعلتهم أتباعًا لها وقادتهم إلى إشعال لهيب الثورة ومحاربة الفرنسيين، الأمر الذي سرع في سقوطها وانهزامها.

الثانية: شخصية راندون التي أضفى عليها سمة البطولة والبسالة، وحسن التخطيط والتدبير، وجعلها رمًزا للوطنيّة والشجاعة، والدهاء ، وأبرزها في صورة القائد العظيم.

الأمر الذي أثار حفيظة الروائيّ عبد الملك مرتاض، وجعله ينتصر لهذه المقاومة عبر بنية رواية "الطوفان" وذلك عن طريق إبراز جانبها البطوليّ والنضاليّ بالوقوف على حدث سقوطها وبيان سبب الانهزام الذي أرجعه إلى إصابتها بالشلل الذي أعاق حركتها « ثمّ إنّ هذا الكاتب أجحف السيدة فاطمة نسومر من التاريخ حقّها الموفى وذلك حين أهمل تاريخ بداية مقاومتها، ولم يتحدث إلاّ عن تاريخ أسرها الذي لم يتمّ، في الحقيقة، إلاّ حين تعرّضت لنوبة صحيّة حادة، وهي تخوض المعركة، فشلّتها شلاً، وذلك بعد أن هاجمها المجرم راندون بثلاثين ألف مرتزق مما كانوا يعدّون ... »[27]

من هذا المنطلق يتبين أنّ عبد الملك مرتاض تعالى بشخص فاطمة نسومر عبر بنية النص، وأبرز للقارئ مدى بطولتها ورفعة مقامها، ومكانتها مقارنة مع الجنرال راندون الذي اعتبره مجرمًا غازيًّا من أوباش أوروبا وأطلق عليه لقب كبير المرتزقة نظرًا لاتصافه بخصال المكر والخديعة، وجعله رمزًا للظلم والاستبداد، والجور والدمار والخراب والغزو « فالمقاومة فاطمة السومريّة لم تكن أقل شرفًا

ولا جاهًا ولا مكانة اجتماعيّة ودينيّة وثقافيّة من المجرم راندون الذي لم يكن إلّا غازيًّا لأرض يعلم أنّها ليست له باغيا عليها،بل كانت أعلى منه نسبًا و أشرف حسبًا، وأنبل منه مكانة،فهي من هذا الجانب كانت أكفأ منه كفاءة وأمجد ماضيًّا، وأقدر على النكيّ فيه وأضرى»[28]وهذا نظرا لنبل أخلاقها وقوة شخصيتها.

استحضره عبد الملك مرتاض كشخصية مضادة تمثل الآخر/ العدو الفرنسي وشحنه بكلّ السمات السلبيّة، محاولًا بذلك الحطّ من قيمته، وتصوير الهدف الحقيقي من وراء شنّ الحروب الصليبيّة القائمة باسم الدين ضد المسلمين.

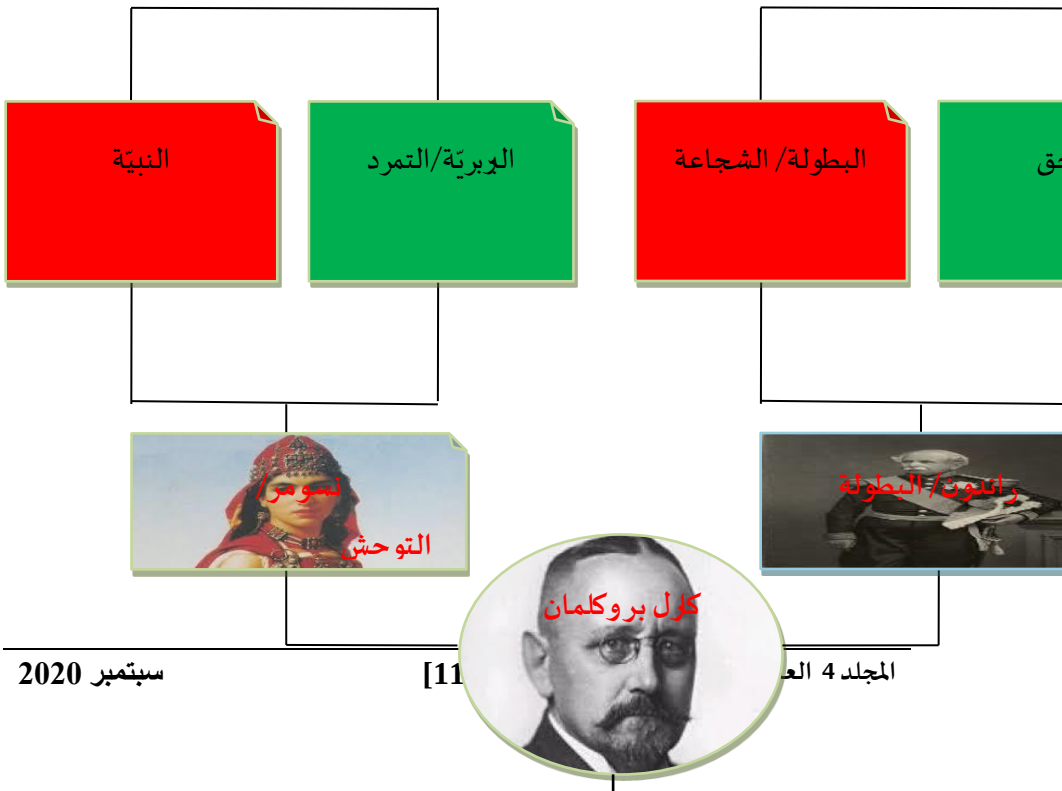

وإنْ كان كارل بروكلمان تعالى بشخص راندون، وجعله رمزًا للشجاعة والقوة وقائدًا يحتذى به في الوطنيَّة، فإنّ عبد الملك مرتاض استحقر هذه الشخصية، وجعلها رمزا للغرب الظالم والمستبد، الذي يتميز بالتطلعات

التطرفيّة البعيدة عن الإنسانيّة المجردة من كلّ القيم الروحيّة، والأخلاق النبيلة، مضفيّا عليه بذلك بعدًا أيديولوجيًّا دكتاتوريًّا، وهذا نظرًا لسوء معاملته للجزائريين، وخاصة حين استعمل سياسة الأرض المحروقة للإطاحة بالمقاومة فاطمة نسومر وإخماد نار الثورة، فكان «لا يمرّ بشجرة إلاّ عضدها ولا بدار إلاّ هدمها، ولا بمزرعة إلاّ أحرقها، ولا ببئر مطوية إلّا ردمها ردمًا.»[29]

فهو في نظره صورة حية للوحشيّة والانحطاط، ورمزًا للشرّ، والطغيان والفساد أما فاطمة نسومر فكانت بالنسبة له رمزًا للخير، والبطولة والشجاعة، والعظمة والقوة، والصلاح والورع، والصدق، والأمانة والعفة، والصفاء والإيمان، والقيادة الرشيدة

وظفها الكاتب بطريقة إيجابيّة، وتعالى بها عبر بنية "الطوفان"، وجعلها رمزًا للوطن والأرض والإسلام وصورة حية للأمة الإسلاميّة في أرقى بطولاتها وأمجادها، كما نجده عانق بين هزيمة فاطمة نسومر وسقوطها في الأسر مع هزيمة الدول الإسلاميّة (العراق،ليبيا، أفغانستان، فلسطين) وسقوطهم في قبضة الاحتلال الأمريكيّ والصهيونّي.

وقد اختار نص بروكلمان موضوعًا لهيكلة قصة فاطمة نسومر« ليجلي لنا مفهوم القيادة ويبين لنا طبيعة الصراع الحضاريّ»[30] والأيديولوجّي الموجود بيننا وبين الغرب، حيث صور لنا شخصية فاطمة نسومر بشكل مثالّي، وحملها مجموعة من الصفات الإيجابيّة: كالحكمة، وفصاحة اللسان ونبل الأخلاق، والحزم والبسالة والنضال، والعلم، ذات جاه ومكانة مرموقة في المجتمع الجزائريّ إذ كانت «تأسر الرجال والنساء بفصاحة لسانها وسحر بيانها،أسرًا، كما كانت تنتزع منهم الاحترام والتقدير بحميد خصالها ...كانت امرأة نادرة النظير في التاريخ حقًا»[31]ليس لها مثيل.

بناء على ما سبق يتبين لنا أنّ استدعاء قصة فاطمة نسومر في رواية "الطوفان" لم يكن تأريخيًّا، كما فعل كارل بروكلمان وإنمّا كان مراجعة للتاريخ، وقراءة له بما يتناسب مع الواقع المعيش، إذ أنّنا نجد أنّ الكاتب قد وفق في استحضار حادثة أسر المقاومة فاطمة نسومر التي كانت رمزًا لسقوط الأمة الإسلاميّة في قبضة الغرب، فيما دلّ شللها على الضعف وعدم المقدرة على التحرك لحماية الذات من المخاطر.

وحسب رؤية الروائيّ عبد الملك مرتاض وتجربته الفنيّة المعاصرة فإنّ الأمة الإسلاميّة مصابة بالشلل ليس بمقدرتها حماية ذاتها، عاجزة بلدانها على تلبيّة حاجياتها يتميز نظامها بالفساد، إذ يتحكم الغرب فيه ويسيطر عليه، الأمر الذي ساعد على سقوط بعض مدنه، فيما المدن الأخرى لا تزال تحت هيمنته ،ينتظر الانقضاض عليها يومًا بعد يوم حتى لا تنكسر شوكته.

كما أنّ المتتبع لقصة "فاطمة نسومر" يلحظ أنّ عبد الملك مرتاض خلق جوًا أسطوريًّا ملحميًّا لشخص فاطمة نسومر، وأبرز تأثيرها الإيجابّي على الحركة الوطنيّة ودورها البارز في المقاومة الجزائريّة، تمّ توظيفها من أجل بيان الخطر الذي يحدق بالأمة الإسلاميّة.

من هذا المنطلق نستخلص أنّ عبد الملك مرتاض عالج قضية جد هامة، ألاّ وهي تسلط المؤرخين المستشرقين على الشخصيات الإسلاميّة، والقدح فيهم، حيث استحضر نص كارل بروكلمان كدليل على ذلك، وأبرز عبر بنية السرد مدى كراهيّة هذا المؤرخ لشخص فاطمة نسومر والشعب الجزائريّ، وذلك من خلال نعتهم بالبربر غير المتمدنين والهمجيين.

وقد هاله بروز شخصية فاطمة نسومر كقائدة محنكة، تقود المعارك الضاريّة ضدّ المحتلّ الفرنسيّ، لذا حاول الحطّ من قيمتها وقدرها، ونعتها بالنبيّة استحقارًا لبطولتها، وشجاعتها ونضالها، والإساءة لشخصها كامرأة مسلمة

مكافحة مقاومة، لا لشيء سوى أنّها امرأة تحدت الهيمنة الذكوريّة والسلطة الاستدماريّة، ورفضت الاضطهاد والظلم والاستبداد عن طريق النضال والجهاد بتعبئة السكان وتحريضهم على القتال والصمود في وجه العدو المحتلّ.

وإضافة إلى ذلك نجد مرتاض أبرز ذاتيّة هذا المؤرخ وعنصريته، وكراهيّته للإسلام والمسلمين وعدم مصداقيّته، وموضوعيّته في التأريخ، وهذا نظرًا لقيامه بتزوير مجموعة من الحقائق كجعل المستدمر الفرنسيّ حاميًّا، وحاملاً للحضارة، فيما نعت الشعب الجزائريّ بالبربر المتعطش إلى الثورة.

الخاتمة:

بناء على ما سبق نستخلص أنّ الشخصية مصطلح لازالت حمولته المفهوميّة مستعصيّة على النقاد يكتنفها بعض الغموض، وهذا نظرًا لتضارب الدراسات وتناقضها، حيث ذهب الاتجاه التقليديّ إلى اعتبار الشخصية كائنًا إنسانيًّا له صورته الواقعيّة، وجوهره السيكولوجيّ الخاص به، فيما ذهب البنيويّون إلى اعتبار الشخصية علامة لسانيّة، أما الاتجاه الآخر رأى أنّ الشخصية علامة لغويّة، وكائنًا ورقيًّا لا وجود له خارج اللغة.

أما فيما يخص الشخصيات المستدعاة في رواية الطوفانّ فإنّنا نجد أنّ عبد الملك مرتاض وظف مجموعة من الشخصيات التاريخيّة، وأبرز هذه الشخصيات شخصية فاطمة نسومر ،هاته الشخصية التي أضفى عليها بعدًا أيدولوجيًّا وآخر جماليّا وربطها بالتاريخ الجزائري، وجعلها رمزًا للبطولة والشجاعة والوطنيّة والحكمة والقوة وحملها أبعاد تجربته ورؤيته الفنيّة، وتعالى بها عبر بنية المتخيل السردي، ونقلها إلى المتلقي في طابع رمزي إيحائي بغية التعمق في استنطاق بناها الفكرية والمعتقداتية والدلاليّة، حيث استحضر بطولاتها وانتصاراتها ومعاركها الضارية ضدّ الاحتلال الفرنسي لبناء وهيكلة قصته .

كما حاول عبر بنية السرد بيان مكانة المقاومة فاطمة نسومر من الناحية التاريخيّة عند الكتاب والمؤرخين المستشرقين ونظرتهم إليها، وذلك باستحضار نصوصهم التاريخيّة واستقرائها، وتسليط الضوء عليها لإعطاء الرواية نوعًا من

المصداقيّة والواقعيّة، وذلك عن طريق إبراز بطولة فاطمة نسومر وبسالتها وإنصافها تاريخيًّا باستبعاد الأراء التعسفيّة،

لذا نجده استحضر صور تاريخها النضاليّ المشرق، وجعلها رمزًا للوطن والأمة الإسلاميّة، وأظهرها في صورة العربّي القوي المتمرد على أنظمة الاستدمار وغطرسته فيما أظهر صورة الغربيّ راندون بصورة المتفوق المهيمن المتحكم في زمام القوى تماشيًّا مع الواقع المعيش.

وذلك بهدف تحذير القارئ والأمة الإسلاميّة من خطورة الاستدمار الغربيّ الذي استفحل داخل جسد الأمة العربيّة والإسلاميّة.

المصادروالمراجع:

1. حسن البحراوي، بنية الشكل الروائيّ الفضاء الزمن الشخصية، المركز الثقافي العربي،ط:1 بيروت،لبنان،1990.
2. جورج برنارشو، جان دارك، تر: أحمد زكي بك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د ط القاهرة،1938.
3. رابح لونيسي، ح عبد القادر مريم سيد على مبارك، رجال لهم تاريخ، نساء لهن تاريخ، دار المعرفة، د:ط الجزائر، 2010.
4. سلمى مجدي، أسوأ النساء في التاريخ، دار الكتاب العربّي د:ط ، دمشق/القاهرة ،د:ت.
5. عبد العزيز شبيل الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، ط: 1، سوسة، تونس ،1987.
6. عبد الملك مرتاض، الأعمال السردية الكاملة ثلاثيّة الجزائر، منشورات مختبر السرد العربي، د:ط قسنطينة 2012، مج3
7. عبد الملك مرتاض، في نظرية الراية، بحث في تقنيات السرد" دار الغرب للنشر والتوزيع،دط، وهران.دت.

8. عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب،دط، الجزائر،1990 .
9. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائريّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ: تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية، دار العزة والكرامة للكتاب، ط: 2 ، الجزائر 2016م/1437 هـ.
10. محمد التونجي معجم أعلام النساء،دار العلم للملايين، ط: الأولى، بيروت (لبنان)، مارس 1002.
11. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط:40 ،بيروت (لبنان)، 2003.
12. نفلة حسن أحمد، التحليل السيميائّي للفن الروائيّ: دراسة تطبيقيّة لرواية الزيني بركات، دار الكتب والوثائق القومية،د ط، الاسكندرية ، 2012.

الرسائل الجامعيّة:

1. زهيرة بنيني، بنية الخطاب الروائيّ عند غادة السمان مقاربة بنيويّة، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 1428 /2007،1429/2008.
2. سعد عودة حسن عدوان، الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائيّة دراسة في ضوء المناهج النقديّة، رسالة ماجستير إشراف نبيل خالد أبو علي، الجامعة الإسلاميّة بغزة، 1435هـ/2014م.

الهوامش:

[1] **عبد العزيز شبيل الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، ط: 1، سوسة، تونس ،1987 ص:111.**

[2] عبد الملك مرتاض، في نظرية الراية، بحث في تقنيات السرد" دار الغرب للنشر والتوزيع،دط، وهران.دت ص:116.

[3]عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب،دط، الجزائر،1990، ص :90 .

[4]ينظر: حسن البحراوي، بنية الشكل الروائيّ الفضاء الزمن الشخصية، المركز الثقافي العربي،ط:1، بيروت،لبنان،1990 ص: 213.

[5]نفلة حسن أحمد، التحليل السيميائّي للفن الروائيّ: دراسة تطبيقيّة لرواية الزيني بركات، دار الكتب والوثائق القومية د ط، الاسكندرية ، 2012 ،ص: 111.

حسن البحراوي، م س، ص: 213.[6]

المرجع نفسه، ص: 213.[7]

[8] زهيرة بنيني، بنية الخطاب الروائيّ عند غادة السمان مقاربة بنيويّة، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 1428 /2007،2008/1429، ص: 64

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص:120 .[9]

[10] فاطمة نسومر: ولدت لالا فاطمة نسومر بقرية ورجة بمنطقة عين الحمام بالقبائل سنة 1830، ونشأت نشأة دينيّة لها أربعة إخوة أكبرهم سي الطاهر،وقد كان أبوها سيدي محمد بن عيسى مقدم شيخ الطريقة الرحمانيّة، أما أمّها لالاخديجة التي تسمى بها جبال جرجرة بالجزائر،وقد انضمت إلى مقاومة بوبغلة وخاضت معه عدة معارك.

ووقعت في الأسر سنة1857م، ووضعت في "سجن يسر"، ثمّ أبعدت إلى زاوية بني سليمان غرب تابلاط وبقيت هناك ست سنوات حتى توفيت في سبتمبر1863م عن عمر يناهز33 سنة على إثر مرض العضال ينظر:رابح لونيسي، ح عبد القادر مريم سيد على مبارك، رجال لهم تاريخ، نساء لهن تاريخ، دارالمعرفة، د:ط الجزائر، 2010، ص: 400/397، وعلي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائريّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ:تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية، دارالعزة والكرامة للكتاب، ط: 2 ، الجزائر 2016م/1437 ه،ص:608.

[11]**عبد الملك مرتاض**، الأعمال السردية الكاملة ثلاثيّة الجزائر، منشورات مختبر السرد العربي، د:ط، قسنطينة 2012، مج 3. **ص: 260/259.**

م ن، ص: 260.[12]

[13] **كارل بروكمان: (1868/1956) Brockelmann مستشرق ألماني له"تاريخ الآداب العربية" و"تاريخ الشعوب الإسلاميّة" المنجد في اللغة و الأعلام، ص:122.**

[14] **عبد الملك مرتاض، م س، ص:260.**

[15] **جان دارك(815-835هـ /1412/1431م) فرنسية قديسة، حاربت لتحرير بلادها من الانجليز، وهي ابنة مزارع فرنسي كانت تسمع بعض أصوات القديسين تحثها على مساعدة ملك فرنسة شارل السابع، وتنفيذًا لأوامر الأصوات قصدت قلعة " شينون "حيث يقيم الأمير، واتهمت بالهرطقة ثمّ برئت وجهز لها الأمير جيشا استعادت به منطقة "أورليان" 1429م، وهزمت الانجليز في مواقع عدة،لكن الانجليز قبضوا عليها بطريق الخيانة،وحوكمت ،وصدر الحكم باحراقها حية، ينظر: محمد التونجي معجم أعلام النساء،دار العلم للملايين، ط: الأولى، بيروت (لبنان)،، مارس 1002، ص:64.**

[16]**عبد الملك مرتاض، م س، ص:260.**

[17] **كاترينا الثانية :(1142-1211هـ/1729-1796م) قيصرة روسيّة من 1762م حتى وفاتها، مع أنها ألمانية، اسمها الأصلي "صوفيا"، وهي ابنة الأمير كريستان أوغسطيس، فبعد أن حكم بطرس الثالث روسية ستة أشهر تزوج بها، وقد وصلت كاترين إلى الحكم وعمرها ثلاث وثلاثون سنة، وحكمت مثلها، ولقبت بالعظمى واتصفت بالحزم والعزم والجرأة، واشتهرت بانتصاراتها على الأتراك .ينظر:محمد ألتونجي، م س ،ص:145 المنجد في اللغة والأعلام**، دار المشرق، ط:40 ،بيروت (لبنان)، 2003. **ص:455.**

[18] **عبد الملك مرتاض م س، ص:260**

[19] **م ن، ص:261.**

ينظر: سلمى مجدي، أسوأ النساء في التاريخ، دار الكتاب العربّي د:ط ، دمشق/القاهرة، ،د:ت. **ص: 53/52.** [20]

[21] جورج برنارشو، جان دارك، تر: أحمد زكي بك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د ط القاهرة،1938 ص:236.

[22]عبد الملك مرتاض، م س، ص:262.

م ن، ص:263.[23]

[*]النبيّ: هو المخبر عن الغيب أو المستقبل بإلهام من الله، والمخبر عن الله وما يتعلق به تعالى، بعثه الله لهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق الصحيح، ينظر: المنجد في اللغة والأعلام،ص:784

[24]رابح لونيسي، مريم سيد علي مبارك، رجال لهم تاريخ، دار المعرفة د:ط ، الجزائر، 2010

ص:397.

عبد الملك مرتاض م س، ص:261.[25]

، م ن، ص:[26]261

م ن، ص:263.[27]

م ن، ص:264.[28]

م ن، ص:267.[29]

[30]سعد عودة حسن عدوان، الشخصية في أعمال أحمد رفيق عوض الروائيّة دراسة في ضوء المناهج النقديّة، رسالة ماجستير إشراف نبيل خالد أبو علي، الجامعة الإسلاميّة بغزة، 1435هـ/2014م، ص:92.

م س، ص:265.[31]